المحاضرة التاسعة (9)

. (البديع في شعر الخنساء.149. (

وهكذا حاولت الخنساء تلوين شعرها بألوان بلاغية محاولة إيصال المعنى إلى المتلقي، والتفنن في القوافي والتلاعب بالألفاظ للتأثير في نفس السامع ، ونقل المشاعر إلى الآخرين بصورٍ متعددة كما أنها حاولت إظهار شعرها بصورة جميلة وبشكل رائع، يجعل قارئه يتفاعل مع معانيه ويسبح في خيالاته ويعيش المأساة وكأنه صاحبها.

وإني لا أجد تشبيهاً لشعر الخنساء إلا بدم الغزال الذي يخرج من عرقه ودمه بعد إجهاده وإتعابه يقول المتنبي:

فإن تفق الأنام وأنت منهم

فإن المسك بعض دم الغزال

الظواهر اللغوية

استعملت الخنساء كلمة البكاء بصورتين : ممدودة ومقصور، يقول ابن منظور : " البكاء يقصر ويمد قاله الفرّاء وغيره: إذا مددت أردت الصوت الذي يكون مع البكاء، وإذا قصرت أردت الدموع وخروجها، قال حسّان بن ثابت:

بكت عينيّ وحق لها بكاها

وما يغني البكاء ولا العويل

وقال الخليل : من قصره ذهب به إلى معنى الحزن ومن مدّه ذهب به

إلى معنى الصوت. "
وقد وردت كلمة البكاء مقصورة وممدودة في الديوان في ستة مواضع، أربعة منها مقصورة واثنين ممدودة، تقول:
ألا ما لعينيك لا تهجع
تبكي لو أن البكا ينفع

.....

وإني والبكا من بعد صخر
كسالكة سوي قصد الطريق

.....

وكل عبرى تبيت الليل ساهرة
تبكي بكاء حزين القلب مشتاق

.....
تبكي عليك بكا ثكلى مفجعةٌ
ما إن يجف لها من ذكره ماقي

.....
لا تخذليني عن جدّ البكا
فليس ذا ياعين سوقت الخذول
ج

إذا قبح البكاء على قتيل
رأيت بكاءك الحسن الجميل ا

هذه هي المواضع التي وردت فيها كلمة البكاء مقصورة وممدودة، وإذا نظرنا إلى السياقات التي وردت فيها هذه الكلمة، والمعاني التي تنبثق عنها، وجدنا أنّ الجو العام الذي ترد فيه كلمة (البكاء) مقصورة يكون الحديث عن الدموع وكثرتها، والحزن الذي يعصر قلبها، ويفتت كبدها وقد تطلب من عينيها أن لا تخذلها عن جدِّ البكاء فإن هذه اللحظة ليست لحظة خذلان وإنما هي لحظة تعبير عن الألم وإهراق الدمع.
كما أنها تشبه نفسها بالثكلى التي فقدت ولدها مفجوعة بمصابها، متألمة من داخلها.
أما إذا جاءت كلمة (البكاء) ممدودة فإن الجو العام الذي ترد فيه يكون الحديث عن صخر ومصابها به، وأن قلبها يتألم بفراقه، وتبيت الليل ساهرة على ذكراه، وإن البكاء إذا كان قبيحا فإن بكاء صخر حسنٌ وجميل.
فنبرة الحزن في الصورة الأولى أقوى، ونعمة البكاء موجهةٌ إلى الدموع والعين التي هي مصدر الدمع بينما في الصورة الثانية تكون النبرة أقل ويكون الخطاب إلى القلب وذكر السهر.
وهذا يفسر لنا أن بكاء الخنساء كان ذا لونين وبكاء بصوت قد يصحبه دمع وقد لا يصحبه ، وبكاء بدون صوت وإنما هي دموع تسيل وأحزان تتدفق، ولوعة تخرج.